قصة قصيرة

لحظة صفاء

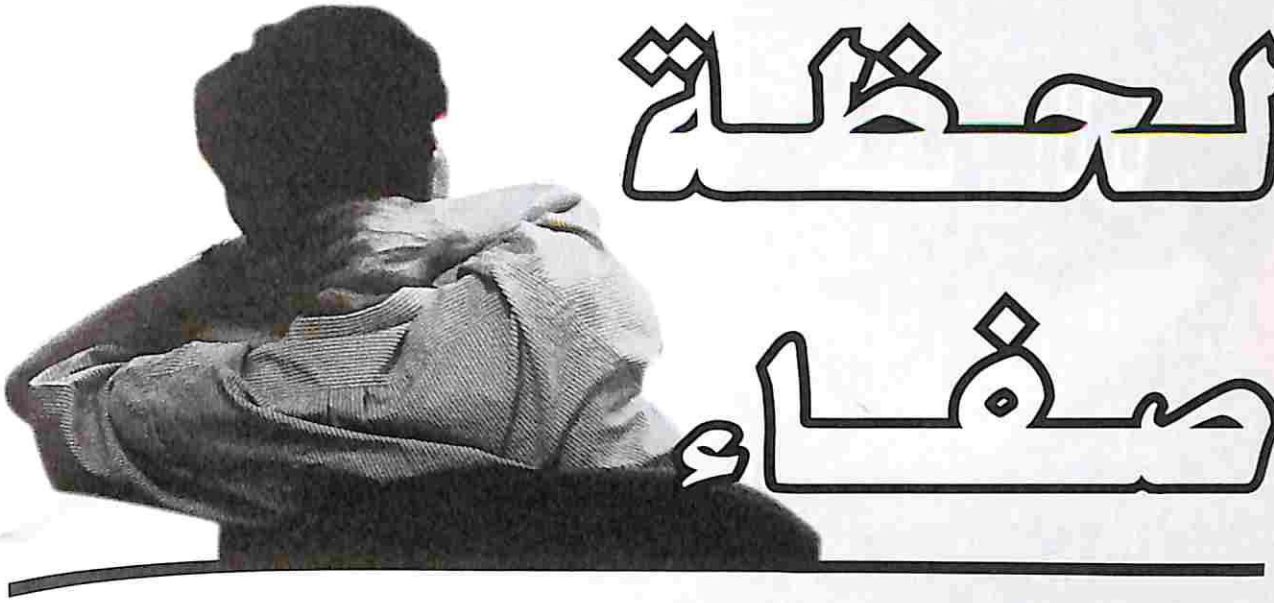

بقلم: مصطفى نصر
مصر

ترك حامد قريته منذ أكثر من أربع سنوات دفعته أمه إلى ذلك دفعا، قالت :

عمك زاهر أصبح غنيا في الإسكندرية، وليس عنده أولاد، وعندما يراك سيقربك إليه وستكون - أنت - الكل في الكل.

لكن عمه زاهرا لم يعبأ به، هو حقا رحب به أول الأمر ودعاه إلى بيته، وعرض عليه أن يقيم في مسكنه لكن العرض لم يكن متينا، فعمه معروف لدى أقاربه وبلدياته بأنه لا يحب أن ينام أحد في بيته، وافترقا..

عمل حامد أعمالا كثيرة : كاتب في مكتب محام، وبائع في محل كبير ومشهور في الإسكندرية. لكنه لم يستقر في عمل ثابت ودائم. وأحس بأنه قد أخطأ عندما ترك قريته. فقد جاء من أجل عمه، وعمه لم يسأل عنه. لا يتقابل معه سوى في المناسبات : الأعياد أو حين يجتمع أهل القرية - الموجودون في الإسكندرية- في الملمات أو الأفراح. وقتها يحنو عمه عليه ويشده إليه :

- كيف حالك، لماذا لا تأتي لزيارتي؟

ويتمتم حامد بكلمات غير مفهومة ثم يفترقان.

في هذه المرة اجتمع الأقارب في «الصوان» الكبير. الشيخ محمود يسمع المقرئ ويحرك رأسه وكتفيه مع الترتيل، يقترب المعزون منه - رغم قراءة القرآن - يشدون على يده. يحاول بعضهم تقبيل اليد التي تمسك المسبحة، وهو يبعدها مسرعا.

درس الشيخ محمود في الأزهر حتى حصل على العالمية. ويعيش الآن بين قريته وبين القاهرة والإسكندرية حيث له مشاغل في كل منهما. يلجأ إليه أهل القرية والذين تركوها وعاشوا بعيدا عنها، إذا ما قابلوه خارج القرية، سألوه في أمور الدين والدنيا، فهو حكيم في الاثنتين، ويحتكمون إليه في المشاكل التي تنشأ بينهم.

تابع حامد الشيخ محموداً من بعيد، أراد أن يسرع ليصافحه، لكنه فضل أن يبقى حتى ينتهي المقرئ من قراءته. بعدها أسرع إليه. قال الشيخ :

- كيف حالك يا حامد. والدك كان رجلا طيبا.

- أريد أن أتحدث إليك في أمر مهم.

- بشأن عمك زاهر. أليس كذلك ؟

- أربع سنوات في الإسكندرية ولم يقربني إليه. عماله كثيرون، كلهم أغراب.

- هل أنت فرح لأن عمك في هذه الحالة من الغنى؟

- تلعثم حامد، وأراد أن يقول أي شيء، فأسرع الشيخ مكملا:

- اصدقني القول، ولا تكذب.

لم يجبه حامد.

- هذه يا ابني المشكلة. مال عمك أقرب إليه منك لأنه جمعه بكده وتعبه، ولا يرضى أن يذهب إلى أحد يكره النعمة لصاحبه.

صمت حامد وأحنى رقبته كأنه يعتذر عن عمل كريه أتاه، ويخجل منه

ربت الشيخ على ظهره قائلا:

- اجعل قلبك صافيا واتجه إلى الله بصدق، وحينما تحس بأن عمك أحق بماله من غيره، سيأتي المال إليك دون أن تسعى إليه.

تركه الشيخ في حيرة، صافحه وهو شارد، وصافح عمه زاهرا وهو شارد أيضا، لا يدري ما الذي قاله عمه، هل دعاه إلى البيت ككل مرة أم لا.

عاد حامد إلى بيته، شقته متواضعة، يعيش فيها وحده منذ أن جاء إلى الإسكندرية.

أحس برغبة في البكاء. إنه لم يسأل نفسه ذلك السؤال الذي باغته به الشيخ محمود، ماذا، أيكره النعمة لعمه، ألا يريده أن يكون غنيا، أيحسده على ماله ؟!

كان - هو - وأمه يتحدثان عن ذلك - قبل أن يأتي إلى الإسكندرية - يتحدثان عن الثروة التي نزلت على عمه دون رضى منه ومن أمه.

بكى حامد: عمي في منزلة والدي، فلماذا أحس حياله بذلك الإحساس الغريب، إنه يعرف حدود الله.. لم يسرق، لم يأت بماله عن طريق غير شريف، كما أنه ليس بخيلا، وإن كان لا يحب لأحد أن ينام في بيته، فهذا حقه، فلديه زوجة، وعالمه الخاص الذي لا يريد أن يشاركه فيه أحد، ولا يستطيع أحد أن يلومه على ذلك.

قام حامد وصلى العشاء. ظل فوق سجادة الصلاة إلى وقت متأخر دون صلاة، أحس بالخجل من نفسه، لا شك أن عمي كان محقا في عدم عرض العمل علي. فقد كان يقرأ الحسد في عيني، إنني الآن لا أريد أن أعمل لديه، ولن أسعى إلى ذلك، من الغد سأعود إلى قريتي، أبقى إلى جوار أمي، فمن الممكن أن يلمح عمي ذلك الحسد في عيني ثانية لو بقيت في الإسكندرية.

نام فوق سريره حزينا، سيكتب رسالة إلى أمه في الغد «إنني لا أريد شيئا من عمي، ولا من غيره وأنا قانع بما قسمه الله لي من رزق».

لا يدري حامد متى نام، استيقظ على دقات عنيفة على الباب، فأسرع فزعا لفتحه:

- اللهم اجعله خيرا.

- وجد عمه أمامه، ظنه آتيا ليلومه: «كيف يا ابن أخي تكره النعمة لي ؟!».

- أما زلت نائما؟!

- نعم.

- لم تصل الفجر؟!

- كنت متعبا ليلة أمس.

- ارتد ملابسك مسرعا، وتعال معي إلى متجري. أموالي في يد الأغراب وأنت ابن أخي - أقرب مَنْ لي، وبعيد عني، لم تفكر يوما في الوقوف بجوار عمك، البعض يسرقني.

ظن حامد أنه يحلم، وأن ما يحدث - الآن- نتيجة لتفكيره فيما حدث بالأمس، لكن عمه صاح فيه:

- أسرع يا حامد، وارتد ملابسك، سنتناول الإفطار في مطعم شركتي. فلا بد أن أستلم عربة كبيرة محملة بالبضائع بعد ساعات قليلة.

- حاضر يا عمي!.

وأسرع حامد بارتداء ملابسه غير مصدق لما يحدث. ■